

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

- النشأة والتطور -

- التقعيد والتأصيل -

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد :

يمكن القول أن "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" كان وبصفة عملية يسير بالموازاة مع نزول الوحي ؛ سواء من زاوية التخطيط التربوي والتشريعي لنزول القرآن، أو من زاوية عملية ترتيب هذا القرآن بتوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم ، على هذا النسق المتداول بيننا اليوم.

أما من الناحية الأولى فيتجلى في مسألة وحدة القرآن المكي وارتباط بعضه ببعض وبحسب تاريخ نزوله , وكذا وحدة القرآن المدني . ثم ارتباط القرآن المدني بالقرآن المكي . ومن أبرز الأمثلة على ذلك قضية التدرج في تحريم الخمر .

وأما من الناحية الثانية فتتجلى في مسألة وحدة القرآن الكريم بهذا الترتيب التوقيفي من سورة الفاتحة إلى سورة الناس , وفي آيات السورة الواحدة كذلك .

لكن حاجة الناس لمعرفة هدايات القرآن الكريم عند تفسيره هي التي تملئ نوع المنهج اللازم إتباعه من أجل تحقيق ذلك.

فإن يظهر بيان القرآن الكريم في هذا الشكل أي التفسير التحليلي والتجزئي وبهذا الترتيب المتداول بيننا اليوم في القديم ، وأن يلح العلماء اليوم ؛ المتخصصون والدعاة وغيرهم على ضرورة إعادة النظر في الثوب الذي يظهر فيه أو الطريقة أو المنهج الذي يجب إتباعه . كل ذلك لا يعني انتفاء هذه النظرة الشمولية وهذا الترابط الوثيق بين نصوص القرآن ، ولا يعني إمكانية استغناء المخاطبين عن هدايات هذا الدستور الحكيم في حياتهم وفي شتى المجالات . وإنما الإشكال يكمن في ضرورة تجديد عملية إفهام الناس وتبليغ هذه الرسالة العالمية تبعا للمستجدات والتطورات والتغيرات المستمرة التي يعيشها الإنسان. بل إن حاجة المبلّغ والمبلّغ اليوم إلى هذا اللون من التفسير لأكبر دليل على أمرين :

أولهما : الاستعداد الفطري والفكري للمخاطبين قديما أغناهم عن ضرورة ضبط مناهج معينة لفهم المقصود من الخطاب. وهذا الذي يشير إليه الشاطبي مثلا بقوله :الصحابة ربوا على المحكم - أي في العهد المكي -

وثانيهما : شدة افتقار المعاصرين خاصة - فطريا وفكريا - إلي ضبط مناهج واضحة المعالم لفهم المقصود من الخطاب القرآني هذا على مستوى المتعلمين وربما أمكننا القول على مستوى العلماء والمتخصصين والدعاة - ولبسان حالهم كما يصرحون -

فأن نميز أو أن نتحدث عن نشأة وتطور التفسير الموضوعي كمنهج يفهمنا القرآن وهدايتنا ويجيبنا على إشكالات مختلفة في هذا العصر. فمن باب الجدة في الثوب الذي يظهر فيه أو في الطريقة التي يجب أن يقدم بها تبعاً لحاجة الناس اليوم.

ففي النشأة :

أولاً :

أحسب أن ماجاء في كتاب الموافقات(1) للشاطبي في ق 7 الهجري هو بمثابة معالم أساسية ودقيقة لهذا المنهج . وربما ماصرح به المجتهدين في هذا المجال يعضد هذا الرأي مثل ما قاله دراز شارح هذا الكتاب – في الأربعينيات وما دعا إليه علماء الأزهر خاصة في السبعينات وما قدموا من محاولات - مؤلفات أو رسائل أكاديمية –

ويمكن الإشارة إلى أهم ما جاء في الموافقات في ثلاث مسائل :

الأولى : في الذي يقدم على تفسير القرآن الكريم :

الأولى هو التحفظ من القول في كتاب الله إلا على بينة ، وإلا كان من أهل الرأي المذموم. والناس في العلم بالأدوات المحتاج إليها في التفسير على ثلاث طبقات :

إحداهما : من بلغ في ذلك مبلغ الراسخين، كالصحابة والتابعين ومن يليهم ، وهؤلاء قالوا مع التوقي والتحفظ والهيبة والخوف من الهجوم، فنحن أولى منهم إن ظننا بأنفسنا أننا في العلم والفهم مثلهم وهيئات. أما الثانية والثالثة فالحكم هو المنع أو التحريم (2) .

ولعل السبب الرئيسي في ضرورة إتباع هذا المنهج اليوم هو افتقار المقدم على فهم أو تفسير القرآن الفهم المفضي إلى الاهتداء والتبليغ إلى هذا المستوى وهذا الذي نص عليه في مقدمة كتابه قائلاً : لايسمح للناظر في هذا الكتاب أن ينظر فيه نظر مفيد أو مستفيد حتى يكون ريان من علم الشريعة ، أصولها وفروعها منقولها ومعقولها غير مخلد إلى التقليد والتعصب للمذهب (3)

(1) فالكتاب قرأته مرتين ولخصته وبنيت عليه رسالتي للدكتوراه " تفسير القرآن بالقرآن " التي نوقشت شهر أكتوبر

2015 .

(2) انظر الموافقات : 2 / 3 / 294 بتصرف .

(3) المصدر السابق : 2 / 3 / 58 .

الثانية : في الخطوات التي يجب إتباعها في هذا المنهج نحو :

- مراعاة ترتيب النزول لأجزاء المسألة الواحدة حالة ذكرها مفرقة في السور وضرورة الجمع بين تلك الأجزاء ومن أمثلة ذلك

قوله : كان نزول القرآن نجوما في عشرين سنة , ووردت الأحكام التكليفية فيها شيئا فشيئا , ولم تنزل دفعة واحدة , وذلك لئلا تنفر عنها النفوس دفعة واحدة , وفيما يحكا عن عمر بن عبد العزيز قوله لابنه " لاتعجل يا بني , فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين , وحرمها في الثالثة , وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة , ويكون من ذا فتنة. وهذا معنى صحيح معتبر في الاستقراء العادي (1)

وقوله: إن حقيقة البيان في الجمع بين العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل ... وما لزيغ والانحراف الذي حدث - العقدي أو غيره - إلا لعدم الجمع لأن البيان مقترن بالمبين فإذا أخذ أحدهما فقط صار متشابهها وليس بمتشابه في نفسه (2)

- ضرورة تنزيل المدني على المكي يقول :

المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي , وكذلك المكي بعضه مع بعض , والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل , وإلا لم يصح , والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي , كما أن المتأخر في كل واحد منهما مبني على متقدمه , دل على ذلك الاستقراء , وذلك إنما يكون؛ بيان مجمل ، أو تخصيص عموم ، أو تقييد مطلق ، أو تفصيل مالم يفصل، أو تكميل مالم يظهر تكميله (1) ببيان .

(1) الموافقات : 1 / 2 / 326 بتصريف

(2) المصدر السابق : 2 / 3 / 63

(2) المصدر السابق : 2 / 3 / 283

(3) المصدر السابق : 1 / 2 / 316

(4) المصدر السابق : 1 / 2 / 308

(5) هو شرح دراز لقوله السابق : 1 / 2 / 308

مثال ذلك : الأنعام نزلت مبينة لقواعد العقائد وأصول الدين (وقد خرج العلماء منها قواعد التوحيد التي صَنَّفَ فيها المتكلمون، من أول إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة) ثم لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من أول ما نزل عليه البقرة ، وهي التي قررت قواعد التقوى المبنية على قواعد الأنعام فإنها بينت من أقسام أفعال المكلفين جملتها وإن تبين في غيرها تفاصيل لها ... وما خرج عن المقرر فيها فبحكم التكميل ، فغيرها من السور المدنية المتأخرة عنها مبني عليها ، كما كان غير الأنعام من المكي المتأخر عنها مبني عليها . فلا يغيبن عن الناظر في الكتاب هذا المعنى ، فإنه من أسرار علوم التفسير وعلى حسب المعرفة به تحصل له المعرفة بكلام ربه سبحانه (2)

والثالثة : في أمرين أساسيين :

1 - التقيد بمقصود الشارع من كلامه: فلا إفراط ولا تفريط بمعنى استنطاق المفسر النصوص القرآنية التي أشارت بإجمال أو بتفصيل إلى موضوع ما لموضوع كيفية خلق الإنسان لا يعني جعل القرآن مصدرا لهذه التخصصات ولهذه العلوم كما أن الغفلة عنها وعن تفسيرها تقصير في الأخذ بأنواع البيان الموصل إلى الاهتداء وفي هذا الصدد يقول :

قوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) النحل -89- وقوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء) الأنعام - 38 - ، المراد من الآيات ما يتعلق بحال التكليف والتعبد ، أو المراد بالكتاب في قوله : (ما فرطنا) اللوح المحفوظ . ولم يذكر المفسرون فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية و العقلية (3)

2- هذه الشريعة المباركة أمية نزلت على أمة أمية (4) لا تحتاج لفهمها وتعرف أو امرها ونواهيها إلى التغلغل في العلوم الكونية والرياضيات وما إلى ذلك ... ولو لم تكن كذلك لما وسعت جمهور الخلق من عرب وغيرهم ... وهذا كله فيما يتعلق بأحكام التكليف أما الأسرار والعبير والحكم والمواعظ فمنها ما يدق عن فهم الجمهور ويتناوله بعض الخواص بحسب ما يشير الله لهم (5) وذلك هو الواقع على مر العصور .

(1) الموافقات : 2 / 3 / 282

(2) المصدر السابق : 2 / 3 / 283

(3) المصدر السابق 1 / 2 / 316

(4) المصدر السابق : 1 / 2 / 308

(5) هو شرح دراز لقوله السابق : 1 / 2 / 308

فهل كان للعرب من علوم الزراعة وتكوين المني وخلق الإنسان ماتفهم به مثل هذا ؟

(من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) , الطارق – 6 و7 – ومثل أدوار الجنين نطفة ثم علقه ثم مضغة ومثل (ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه) , القيامة – 4 – وهذا من أدق تكوين الإنسان وكمال صنعته كما يقول العلم اليوم بصمة الأصبع وله إدارة تحقيق الشخصية (1)

ثانياً : وإذا نظرنا إليه كمنهج تتضمنه مصنفات العلماء المختلفة نجد الكثير والكثير خاصة في الفقه - آيات الأحكام - وعلوم القرآن - كالتناسخ والمنخوس - والتفاسير - كتفسير القرآن بالقرآن عندهم وكمرعات المناسبة بين آيات السورة الواحدة أو بين سور القرآن نحو نظم لدراز للبقا عي - والمصطلح كعلم الوجود والنظائر ...

إلا أن حاجة المخاطبين تظل دائماً السبب الرئيسي في تحديد المناهج والطرق التي ينبغي الأخذ بها لبيان معاني القرآن الكريم . كهذا المنهج لذلك أقول في :

التطور :

ربما ما دعا إليه علماء الأزهر قبل أو في العقد السادس - الستينات - من ضرورة إتباع منهج التفسير الموضوعي لبيان معاني القرآن الكريم يسجل كتاريخ لإبرازه في مصنفات ومؤلفات وبهذا المصطلح "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم" .

- فدراز مثلاً يؤكد أن طريقة القرآن في عرض المعاني هي التي تستوجب استخراج هذه النظرة وإتباع هذا المنهج , ويستدل على قوله هذا بتجربته مع سورة البقرة وهو يدرس في جامعة الأزهر وسورتي يونس وهود - وقد كانت مقررة في البرنامج -

قال : "كنا نبحث عن الترابط بين الآيات فوجدنا العجب العجاب لقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحددًا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة " (2)

هذا ماجاء في الجزء الثاني من رسالة الدكتوراه التي ناقشها في باريس سنة 1947 " مدخل إلى القرآن الكريم وعرض تاريخي وتحليل مقارن - ط 1986م -

- وغيره من علماء ودعاة الأزهر يؤكدون على ضرورة إتباع هذا المنهج ويقدمون محاولات لإبرازه مثل :

- " نظرات في القرآن " لمحمد الغزالي في الخمسينات وأتبعه بمؤلفات أكثر تفصيلاً في هذا المجال نحو :كيف نتعامل مع القرآن , المحاور الخمسة للقرآن , نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم ...

- " الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم " رسالة دكتوراه لمحمد محمود حجازي قدمها في الستينات محاولاً استخراج نظرية تعتمد في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني

" الصورة الفنية في المثل القرآني – دراسة نقدية وبلاغية " رسالة دكتوراه نوقشت سنة 1979 لدا محمد حسين علي الصغير ويؤكد ويلح على ضرورة إتباع هذا المنهج في كتابة " المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم " (1)

- (1) يذكر في هذا بما قاله مالك بن نافع الظاهرة القرآنية مدخل إلى القرآن ص 119 ويشير إلى مقاله وصرح به القدماء : أبو بكر النياجوري والرازي وابن العربي والباقعي والشاطبي
- (2) ص 146 - 151 - 152 لإيجاد حلول مشاكل الإنسان اليوم .

(1) الموافقات : 1 / 2 / 310

- (2) انظر مدخل إلى القرآن الكريم ص 119 ويشير إلى مقاله وصرّح به القدماء : أبو بكر النياجوري والرازي وابن العربي والباقعي والشاطبي . أقول وهذا عين ما ذهب إليه مالك بن نبي في الظاهرة القرآنية
- (1) ص 146 – 151 – 152 – لإيجاد حلول مشاكل الإنسان اليوم .

- وهذا عميد كلية أصول الدين بالأزهر محمد الصادق عرجون يؤكد ذلك في كتيب " نحو منهج لتفسير القرآن الكريم " ط 3 - 1979- وكذا كتابة القرآن العظيم هداياته واعجازه في أقوال المفسرين - ط 1966 - .

- وتتوالى اجتهادات الباحثين للتدقيق في بيان خطوات المنهج أنظر مثلا :

- مباحث في التفسير الموضوعي د . مصطفى مسلم ط 2 - 1979 -

- المدخل إلى التفسير الموضوعي عبد الستار فتح الله

- السنن التاريخية في القرآن وعناصر المجتمع في القرآن الكريم وهي محاضرات قدمها محمد باقر الصدر في السبعينات ونشرت في كتابه " المدرسة القرآنية "

- مؤلفات أ . رحمانى - بياتنة - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا ومناهج التفسير

الموضوعي

- بل إن المفسرين اتبعوا هذا المنهج وهم يفسرون القرآن بهذا الترتيب وحاولو بيان الموضوع العام الذي تتناوله السورة ثم تجزئتها إلى مقاطع ومعاني ثانوية تخدم المحور العام نحو :

تفسير المراعي - تفسير السيد طنطاوي - سيد قطب الصابوني ...

ومنهم من عنى ببيان وحدة الموضوع الذي تفرق ذكره في ثنايا القرآن سواء أطلق مصطلح "التفسير الموضوعي" على ذلك أم لا وهو تفسير قرآن بقرآن ويأتي في الدرجة الأولى من البيان كتفسير الشعراوي - وهو جيد في بابه - بل إن تفسير سعيد "الأساس في التفسير" تجاوز صاحبه فيه حد الاجتهاد المتداول بين المجتهدين فأثبت الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم كله بهذا الترتيب المتداول وبنى ذلك على بيان الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية . وكانت النتائج المتوصل إليها موافقة لما صرح به مثلا الشاطبي في الموافقات - عن سورة البقرة(1) -

(1)- وهي أطروحة ماجيستار نوقشت سنة 2001 بالأمر عبد القادر للطالبة جميلة موجاري

(1) انظر . نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوى ؛

والخلاصة :

هذا البيان هو اجتهاد . ألح على تقديمه الواقع والإشكالات التي يواجهها العالم والداعية والمخاطب على حد سواء . وهو قائم على علم المناسبة - الذي هو اجتهادي - خاصة بين آيات السورة الواحدة أو بين السورتين المتتاليتين . فالأخذ به ضرورة يعصمها من الزلل أن يكون المفسر ريان من علم الشريعة , والله نسأل التوفيق والسداد .

أ . موجاري جميلة

كلية أصول الدين

قسم الكتاب والسنة

